الطباعة والالحاد

كان الناس عاجزين عن التنفس ملء صدورهم عندما انبثق فجر القرن السادس عشر الميلادى وكانت العلوم قد بدأت تنمو رغم مقاومة الكنيسة لها ولكن اضطهاد الكنيسة كاحراق جاكوفو نارولا حيا وكتعذيب غاليلو وغيرهما ، صدم العرفان صدمة قوية دون شك

وكانت الكنيسة تبيع الغفران عن الخطايا التى سترتكب — وليس التى ارتكبت فعلا فقط — وبذلك اهينت الانسانية أيما اهانة فثارت الضمائر. كيف لا وهذا النوع الخسيس من التجارة كان يجرى علانية لاجل الحصول على مال يشبع شهوات الاباء المقدسين الدنيئة وقد وجه أولئك المقدسون نظرهم صوب المانيا الغنية فأمعنوا فى نهبها وسلبها أكثر مما فعلوا فى أى قطر آخر فهناك كانت الكنيسة تنصب أسواق المناقصات لبيع الغفران . الامر الذى كان له أثر فعال فى حض الناس على الاكثار من ارتكاب الجرائم التى لم يكن يخطر ببالهم ارتكابها . وكان ثمن غفران الكذب أقل من ثمن غفران السرقة وهذه أقل من جريمة الزنا أو قتل الاطفال والبالغين وحتى جريمة تزوج المرأة بأكثر من رجل كان لها غفران يباع ساعة فى تلك الاسواق بلا أكثر من ستة دوقات ولكن ما الذى كان فى وسع الضمائر الثائرة أن تفعل أمام تلويح الكنيسة بالخازوق وآلاتها الجهنمية الكاسرة لعظام الناس وبيرانها الفاغرة فاها لابتلاع الهراطقة وهم أحياء

ومع كل هذا فقد قامت حركة الاحتجاج (البروتستانتية) ضد هذه السفالات فى اشد الامصار شعورا بفظاعة ما كانت تجنيه القداسة . وساعدت الطباعة على نشر الافكار الحرة (الحاد ذلك العصر) فازداد الخطر

وكانت اول نظرة القتها الكنيسة على فن الطباعة نظرة مادية صرفة اساسها الرغبة فى الاحتفاظ بباب للرزق كان يدر الاموال الطائلة على رجال الكهنوت . كيف لا وقد كانت الكنيسة (او اعضاؤها) تبيع مخطوطة الكتاب المقدس بمبلغ يتفاوت بين ٤٠ و ٥٠ جنيها للنسخة الواحدة وهو مبلغ كبير جدا يسهل تقديره متى علمنا بان ثمن الشاة فى ذلك الوقت لم يكن يزيد عن اثنى عشر قرشا ولم يكن اكبر القسس مقاما يتناول معاشا سنويا يزيد عن ٥ جنيهات

ولكن نبهت الكنيسة الى الضرر الأشد فلم تقاوم المطبعة للمحافظة على سعر

نسخ الكتاب المقدس الذى هبط الى ٦ جنيهات فقط ، بل لمنع تزايد أعداء الأكليروس (وهم أعداء الدين بدون شك) فافتت الكنيسة بتحريم الطبع لانه يتم بطريقة سحرية واتهمت الطابعين بأنهم كانوا يساعدون الشيطان على كتابة التوراة بدماء المؤمنين — كان مداد الطباعة أحمرا فى أول الأمر — وعلى ذلك سارعت البابوية الى جمع النسخ المطبوعة بالحبر فاحرقتها علنا وفتكت بالملحدين ماشاءت لها وحشيتها فلم يجد الطباعون والحالة هذه أمامهم الا الالتفات الى الاديبات اللاتينية واليونانية فنشروا آثار شيشرون وارسطو وغيرهما ولكن الكنيسة فزعت ايضا فحرمت طبع اى كتاب غير المقدس بشرط ان يستأذن الطابع الفاتيكان قبل البدء فى النشر وذلك لقصر تداول التوراة على رجال الكنيسة

غذت الاديبات القديمة عقول الاحرار (الملاحدة) وازادتها لهيبا كما وان سهولة اقتناء الكتاب المقدس نشر الاراء (الالحادية) البروتستانتية فغاص الناس فى البحث وقحة فناقشوا فكرة عصمة الاب الاقدس (البابا) وقدسية الكهنة الخ ما وسعته عقولهم الشريرة

ومعنى ما سبق ان الكنيسة حاولت القضاء على الطباعة قبل ان تصبح هى ضحية للطباعة . وكم كان يجز رجال الدين على اسنانهم تاضبين من تلك الآلة التى جعلت الناس متصلين بالله دون حاجة الى وساطة الكنيسة ، وبالطبع دون بذل أموالهم للانفاق على لذائذ القسس البهيمية

وكان من نتائج الطباعة ان بدأ المترجمون ينقلون الكتاب المقدس الى لغاتهم القومية الامر الذى ضرب البابوية ضربة قاضية فى أحلامها بالامبراطورية الدينية . فقد سقطت اللاتينية عن عرش القداسة وبدأت القوميات المختلفة تنشأ . وبالفعل لم تلبث أوروبا حتى أصبحت مجموعة من الممالك بعضها يعتنق مذهب المحتجين والبعض الآخر ادار للبابوية ظهره . فى حين ان الكاثوليك أنفسهم ضحكوا كثيرا من الخرافات التى حاول القسس ترويجها لابتزاز الاموال

وان من شديد الاسف ان أجد ذاتى مضطرا لذكر أن جامعة السربون الشهيرة أخذت جانب الكنيسة فى هذا النضال فى ذلك الوقت ووافقت على تحريم الطباعة ولكن اما الذى كان فى امكانها أن تفعل ، وقد عجزت الكنيسة عن ايقاف الالحاد عند حد اذ أخذ ينتشر بسرعة وهو يظل العلم الطفل بحمايته الى أن ترعرع